الأولياء الصالحين وأسباب ظهورهم في بلاد المغرب في أواخر عهد المرابطين (537هـ/1142م / 541هـ - 1146م)

مجلة الباحث, العدد السادس والعشرون, يوليو 2020م, مؤسسة طلال أبو غزالة للملكية الفكرية.

إعداد: الدكتور: سعد رحومة المبروك شميسة

جامعة الزنتان

كلية التربية/ الزنتان

2020م

المقدمة:

تعد ظهور الأولياء الصالحين وتعظيمهم من قبل بعض العامة من الظواهر الدخيلة على التاريخ الإسلامي, إلا إنها أصبحت واقعًا ملموسًا يتطلب بحثه ودراسته لمعرفة متى بدأت هذه الظاهرة في بلاد المغرب؟ وما أسباب ظهورها؟

ربطت اغلب المصادر التي تم الاطلاع عليها ظهور هذه الظاهرة بأواخر العهد المرابطي, وتحديدًا في الفترة التي تولي فيها تاشفين بن علي الحكم 537هـ/1142م, ثم ازدادت الأحوال سوء بعد وفاته وتولي ابنه إبراهيم سنة 539هـ/1144م, والتي نتج عنها سقوط دولتهم على يد الموحدين سنة 541هـ/1146م, فعلى الرغم من الدولة المرابطية في بلاد المغرب والأندلس قد ترسخت أركانها في بداية عهدهم, وبلغت أوج مجدها واتساعها من شمال الأندلس حتى تخوم السودان جنوبًا ومدينة الجزائر شرقًا, فازدهرت بلاد المغرب في بداية عهدهم إذ تمكن أمرائها من السيطرة على تجارة البحر الأبيض المتوسط, وتجارة القوافل الصحراوية, إلا أن ضعف شخصية الأمراء المرابطين الذين تولوا بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين سنة 537هـ/1142م, واستسلامهم لأهواء الفقهاء, وتدخل النساء في السياسة, كل ذلك جعل زمام الأمور يفلت من أيدهم, وهو ما جعل دولتهم تدخل في مرحلة التراجع, فلماذا وقع هذا التراجع في وقت كانت الدولة المرابطية لا تزال في زهرة شبابها؟ للإجابة على هذا السؤال يمكن القول يعزى ذلك فيما نرى إلى نقاط الضعف التي صاحبت بناء الدولة, فالدولة المرابطية قامت على أساس عسكري يعتمد على الموارد الحربية لتدعيم كيانها, وهو ما نتج عنه اقتصاد مزدهر سطحيًا فقط يمكن التعبير عنه (باقتصاد المغازي) الذي يكون قويًا عندما تكون الفتوحات في أوجها, فهذا النوع من الاقتصاد غير قابل للاستثمار والتنمية, إذ بمجرد ما تنقطع الغزوات وعمليات الجهاد تنقطع الموارد المالية للدولة من غنائم وخراج ومصادرات وغيرها, ومن الطبيعي أنه بمجرد ما أن ينهار هذا الاقتصاد تنهار معه الدولة, كما إن سلطة الفقهاء لعبت دورًا في هذا التطور السلبي, إذ تجمع المصادر على أن يوسف بن تاشفين كان لا يمضي رأيا دون الرجوع إلى الفقهاء[1] وبالمثل فإن ابنه عليًا "اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين, وكان لا يقطع أمرًا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء"[2], والأمر ذاته سار عليه باقي الأمراء, مِمَّا جعل

الفقهاء يشكلون (ديكتاتورية دينية) على حد تعبير أحد الباحثين[3], لذلك فإن تسلط الفقهاء يعتبر من أكبر الثغرات التي نجم عنها خلل كبير في جهاز دولة المرابطين, زد على ذلك بقاء الموروثات القبلية ماثلة داخل أجهزة الدولة مِمَّا نشأ عنه احتكار المناصب السيادية للدولة من طرف قبيلة لمتونة دون غيرها[4], كما عجز المرابطون عن خلق بنية إدارية متماسكة تسيطر على التناقض القائم بين الطبيعة البدوية وعناصر التطور, وخاصة بعدما ترفع الجيل الثاني من الأمراء المرابطين عن بداوتهم وميلهم إلى حياة الدعة والترف, وبسط أياديهم لحاشيتهم وجنودهم المرتزقة وإنفاقهم الأموال الباهظة على بلاطهم مِمَّا أدي إلى نقص كبير في بيت المال, فكثرت المشاكل وعمت الفوضى البلاد, مِمَّا دفع بالعامة إلى الالتجاء إلى الأولياء الصالحين ليتخلصوا مِمَّا هم فيه, وهذا ما دفع الباحث لكتابة هذا البحث.

وعلى الرغم من الفترة الزمنية التي تفصلنا عن الحقبة المرابطية, إلا أن هذه الظاهرة ظلت تتناقلها الأجيال من خلال المخطوطات والتراجم والتي أظهرت فيها كرامات الأولياء الصالحين في قصص شبه خرافية تفوق كرامات الأنبياء, إلا أنها لم تحظ بما يليق بها من مكانة في الدراسات التاريخية, رغم الخانة التي مثلها هذا الموضوع في المجتمعات فالموضوع عد من اختصاص السوسيوليوجيين والانثروبولوجيين أكثر من المؤرخين, بينما هو في واقع الأمر, عطاء صادق وانعكاس جيد لأرضية تاريخية تجعل منه حقلاً خصبًا للبحث التاريخي, وموضوعًا في أمس الحاجة إلى الاستقصاء والبحث من وجهة نظر المؤرخين.

يعد موضوع الأولياء؛ ببركتهم, وكراماتهم من الموضوعات الحساسة, إلا أنها أسدل عليها ستار من الصمت والتهميش في العديد من الدراسات, وقد يعزى هذا الأمر إلى شح المادة التاريخية, كما تعد قلة الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع بإسهاب من أهم الأسباب التي دعت الباحث لاختيار هذا الموضوع, أما المنهج المتبع في هذا البحث فهو المنهج السردي القائم على تحليل النصوص وتوضيحها, وعرض آراء المؤرخين والباحثين ومقارنتها للصول إلى الحقيقة التاريخية باستخلاص نتائج محددة.

وانطلاقا من هذا الهاجس يحاول هذا البحث مناقشة هذا الموضوع, متوخيًا من ذلك تقديم مساهمة متواضعة لفهم عقلية مجتمع المغرب الإسلامي في أواخر عهد المرابطين, وذلك لآن هذه العقلية مازالت مؤثرة في بعض العامة إلى يومنا, ومازالوا يحجون إلى أضرحة الأولياء الصالحين حتى من قبل بعض المتعلمين وللأسف, ويقدمون الذبائح ويتبركون بهم في قبورهم, ومن هنا سيتم التركيز في هذا البحث على ظاهرة الأولياء الصالحين, وما العوامل المساعدة لظهورها؟ ولماذا تقبلها العامة؟

وفي هذا السياق ستتم دراسة ظاهرة الأولياء الصالحين مع تسليط بعضٍ من الضوء على علاقتها بالفكر الصوفي بالمشرق الإسلامي, في محاولة لتوضيح أن هذه الظاهرة قد نشأت مع استفحال الجهل, وبروز الفوارق الاجتماعية, وازدياد الرفاه المادي لطبقة تمثل الأقلية من المجتمع, وسخط قطاع عريض منه على الوضع السائد, ومن ثم سيطرح هذا البحث مسألة الكرامة والبركة والاعتقاد في ظاهرة الولاية.

الأولياء الصالحين وأسباب ظهورهم في بلاد المغرب في أواخر عهد المرابطين:-

تعد ظاهرة الأولياء الصالحين من الظواهر البارزة التي طبعت الحياة الاجتماعية في بلاد المغرب في أواخر عهد المرابطين, ومازالت آثارها باقية إلى الآن, وخاصة مع كبار السن, إذ تميزت بطغيان مجموعة من المعتقدات الخرافية والظواهر الخطيرة كالسحر والشعوذة والكهانة والتنجيم المنافية للدين والعلم, إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا ظهرت هذه البدع المنافية للدين الإسلامي في العصر المرابطي مع العلم أن المرابطون كانوا متمسكين بالدين الإسلامي وسعوا إلى تطبيق مبادئ هذا الدين منذ قيام دولتهم؟ للإجابة على هذا السؤال يمكن القول أن هذه الظواهر جاءت انعكاسًا امنيًا لبنية ثقافية مناهضة للتيار العقلاني, وإفرازًا لبنية اقتصادية اعتمدت على موارد الغزو أكثر من اعتمادها على تقنيات زراعية وصناعية متطورة, وارتبطت بها جملة من العادات والتقاليد التي يرجع بعضها إلى رواسب ذهنية قديمة, فالتقاليد المتعلقة بالموت والعالم الأخر, والاعتقاد بالاستشفاء بالطرق البدائية, والعادات المتبعة في الأطعمة والأزياء ووسائل الترفيه, والاحتفالات والقيم الاجتماعية السائدة, والتي ترجع كلها

إلى ماض سحيق, ومعطيات بيئية وحضارية قديمة, غير أن الأزمات التي تعصف بالمجتمع تعطيها الصورة النهائية.

ومن نافلة القول أن الحوليات التاريخية لم تول هذا الجانب ما يستحق من الدراسة والعناية, إذ لم تشر إليه سوى بتلميحات خجولة لا تكشف عن الأثر الذي تركه الأولياء في مسار تطور المجتمع إبان تلك المرحلة, غير أن كتب التصوف والمناقب تميط اللثام عن هذه الجوانب المنسية, وترمم بعض الحلقات المغيبة عن هذه الظاهرة.

العوامل المساعدة على ظهور الأولياء الصالحين:-

لبروز أي ظاهرة من الظواهر لابد من عوامل مشجعة لها, لذا يمكن أن نسلط الضوء على بعض العوامل الهامة لسطوع ظاهرة الأولياء الصالحين في المجتمع المغربي أواخر العهد المرابطي ومنها:

1. **العامل الداخلي والمتمثل في تدهور الوضع الاقتصادي في بلاد المغرب:** يوصف اقتصاد المرابطين بأنه اقتصاد المغازي, ذلك الاقتصاد الذي شكل حجر الزاوية في السياسة المالية للمرابطين, لاعتماده على الموارد الحربية المتكونة من غنائم المعارك والضرائب الشرعية, وغير الشرعية, والجزية والخراج, فهذا الاقتصاد كان ظرفيًا ومعرضًا لهزات عنيفة كلما ضعفت الدولة, فالزراعة عرفت انحطاطا تمخض عنه انقباض الفلاحين عن زراعة أراضيهم, ولم تكن الصناعة أكثر حظًا, إذ اقتصرت على الصناعات البسيطة والمعدة للاستهلاك المحلي, فعرفت هي الأخرى على غرار الزراعة في أواخر العهد المرابطي كسادًا كبيرًا, كما عرف بيت المال عجزًا كبيرًا بسبب انقطاع عمليات الجهاد, وزادت من إثقاله النفقات الباهظة التي رُصدت لقطع دابر التحرشات النصرانية, ناهيك عن نفقات الأمراء وإسرافهم في مظاهر البذخ والترف, الشيء الذي أدى إلى سن سياسة جبائية مجحفة أضرت بكل شرائح المجتمع, وأدت إلى ظهور أصوات الاستنكار والإدانة [5].

ومن الثابت أنه أبان الأزمات يدب الضعف والوهن في كيان الدولة المركزية وتستشري الفتن وتحدث المجاعات والأوبئة والكوارث, فيصبح تدخل الظواهر البديلة ضروريًا لإعادة التوازن السياسي والاجتماعي, وهذا ما حدث في أواخر عهد المرابطين في بلاد المغرب, إذ انتشر الجهل, وعصفت الأمراض والمجاعات بأرواح العديد من الشرائح الاجتماعية, وعم القحط والغلاء, وارتفعت الأسعار بشكل مرعب, وصار السواد الأعظم من الرعية يرزحون تحت نير الضرائب, ويعانون من ألوان البؤس الاجتماعي والمحن[6], مِمَّا هيأ التربة الخصبة لبروز ظواهر جديدة كظاهرة الأولياء الصالحين ليتمسك بها العامة في أمل أن تنقضهم مِمَّا هم فيه, زد على ذلك تدني المستوى الثقافي ومحاربة المرابطين للتيار العقلاني, وتضيق الخناق من قبل الفقهاء على كل أشكال التعبير, وتكميم الأفواه, مِمَّا احدث طلاقًا بين عامة الناس بإسلامهم الشعبي, والفقهاء بإسلامهم السياسي الرسمي[7], وبذلك شهدت بلاد المغرب في أواخر العهد المرابطي أزمة طالت المجتمع برمته, اخبرنا عنها ابن عبدون بقوله: "أن الناس قد فسدت أديانهم, وإنما الدنيا الفانية والزمان على آخره, وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء الهرج وداعية الفساد, وانقضاء العالم, ولا يصلح هذه الأمور إلا نبي بإذن الله"[8], كما اطلعنا التادلي عن الحالة المزرية التي أل إليها مجتمعه, فعبر عن ذلك بنوع من اليأس والقلق بقوله: "وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد عن أي شيء يبكي, أعلى فوات دنياه أم على فوات دينه, أم على أخوانه في القربات, أم على أعوانه على الصالحات, أم على دروس العلم وطموسه, أم على اتفاق الخلق على إنكار المعروف وتعريف المنكر, أو على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة ..... أم على أميره الذي لا يرعى فيه إلاً وذمة"[9], كما يضعنا المتيجي المعاصر لهذه الحقبة في قلب الحدث ليعلمنا أن الثقة والنصيحة انعدمتا بين الناس ويفهم ذلك من قوله: "في هذا العصر الذي فيه الخير قليل, والشر فيه كثير, والدين فيه غريب, والجهل فيه غالب"[10], كل هذه الأمور وغيرها شجعت على بروز ظاهرة الأولياء والصالحين, والتي علق عليها العامة خلاصهم مِمَّا هم فيه.

2. **ظهور الفكر الصوفي في بلاد المغرب في أواخر عهد المرابطين:** من الأمور المشجعة على بروز الأولياء الصالحين انتشار الفكر الصوفي في بلاد المغرب, ومن الصعب إدراك ظهور الأولياء على الساحة الاجتماعية دون الوقوف على التناقضات التي طبعت المجتمع, إذ لم يكن منطقيًا أن ندرس ظاهرة الأولياء دون التعريج على الفكر الصوفي ومعرفة نموه وانتشاره, فالفكر الصوفي مثله مثل باقي الأفكار لا يمكن انتشارًه دون أن يكون له طرح اجتماعي يلامس عواطف الفيئات المتضررة, ولا سبيل لإنكار التلاقح الروحي بين المشرق والمغرب الإسلامي, إذ نعلم يقينا بأن التصوف انتشر انتشارًا واسعًا في الشرق أبان هذه الحقبة, ولم يكن تصوف الغزالي سوى عطاءً صادقًا لهذا المد الصوفي الذي جاء مرادفًا لسيطرة الإقطاع السلجوقي, لذلك بات بديهيًا أن يصل هذا التيار إلى بلاد المغرب بواسطة الحج والرحلات العلمية[11], فعن طريق الرحلات دخلت المصنفات الصوفية الشرقية, وبواسطة الإجازات التي تصدر بعض العلماء تدريسها بعد أن آخذها على يد مؤلفيها, وبذلك دخلت الطرق الصوفية والآراء والمذاهب, وتدارسها الناس في المجالس العلمية والدروس العامة, وظل الاهتمام منصبًا حول مصنفات الجنيد والغزالي, ولا يخفى دور الغزالي في ميلاد التصوف بالمغرب, فقد وجدت تعاليمه ونظرياته التصوفية التربة الخصبة في بلاد المغرب, وذلك بفضل العلماء الذين سافروا إليه للأخذ منه [12], ومن أشهرهم صالح بن حرزهم الذي أخذ منه ثم عاد إلى بلاد المغرب فاتبعه خلق كثير[13], ويذكر ابن صعد أن الولي أبا مدين شعيب لقي الشيخ عبدالقادر الجيلاني "فالبسه خرقة التصوف"[14], وكان عبدالجليل بن ويحلان قد التقى كذلك بشيخه أبي الفضل الجوهر المصري عندما رحل إليه من المغرب واتخذ الطريقة على حقيقتها منه بالمشرق[15], ومن القرائن التي تثبت تأثير المشرق في ظهور التصوف على المغرب أن الشيخ عبدالقادر الجيلاني كان يشير كلما سئل عن قرين يضاهيه في البلاد الإسلامية إلى "عبد حبشي بالمغرب اسمه آل وكنينه أبو يعزى"[16], ويزخر كتاب التشوف بعدد من المغاربة الذين يمموا وجوههم شطر المشرق وانبهروا بشيوخ التصوف هناك وأخذوا عنهم, وفي الآن ذاته حط بعض متصوفة الشرق الرحال

في المغرب وساهموا في نشر الطرق الصوفية [17], نخلص من ذلك أنه ليس من قبيل الصدفة أن يتسرب الفكر الصوفي الباطني إلى بلاد المغرب ويؤثر في مجموعة من الأولياء الصالحين أمثال عبدالقادر الجيلاني, وعبدالسلام الأسمر, وسيدي المحجوب, وسيدي أبوعجيلة بن فضل, وسيدي زايد, والزعزوعي, والحاج موسى والذويب, وحمر الخدين, والشعبنية وغيرهم.

ومهما يكن الأمر فقد تسرب الفكر الصوفي إلى بلاد المغرب إلا أن تكوينهم الثقافي كان مختلفًا, وذلك لتنوع المشارب التي نهلوا منها فاختلفت مواقفهم تجاه المجتمع, مِمَّا جعلنا نصنفهم في مجموعتين, المجموعة الأولى ويمثلها التصوف السني الساذج, والذي يتميز ببساطته وبعده عن الخوض في القضايا الفلسفية كالقول بوحدة الوجود أو الحلول والبعد عن التعقيدات[18], وهذه المجموعة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مجموعة من الأولياء, نهجت المجموعة الأولى نوعًا من المجاهدة النفسية والتقشف والزهد في سلوكهم اليومي, ونذكر على سبيل المثال بعض الأعلام لهذه المجموعة منهم أحمد بن عبدالملك بن عميرة الذي كان "إمامًا في الطريقة الصوفية"[19], وأحمد بن عمر بن افرند الذي "كان متقللاً من الدنيا"[20], وعبدالرحمن بن الصقر الأنصاري الذي "كان مائلاً إلى التصوف وقراءة كتب الزهد والرقائق"[21], فضلاً عن عدد كبير من الأعلام الذين ساروا في هذا الركب[22], ومثل المجموعة الثانية مجموعة من الأولياء الزهاد اثروا اقتفاء أثر السلف الصالح, ورفضوا مبدأ المجاهدة النفسية, وتبنوا بدلها مبدأ المجاهدة العلمية الفعلية المتمثلة في المرابطة بالثغور المتاخمة للممالك النصرانية للدفاع عن دار الإسلام والاستشهاد في معارك الجهاد, وخير مثال على ذلك الفقيه الزاهد الولي الإمام الصدفي[23], وتميز هذا الاتجاه بالقاعدة السنية وعدم المغالاة والتطرف, كما ارتبط رواده بالحصون والرباطات ومقارعة الخطر النصراني, وانصب كل نشاطهم على تصحيح الإسلام وبث المبادئ الأساسية في الدين ومحاربة البدع, وهذا ما يفسر إدراج ابن الزيات لوجاج بن زلو صاحب مدرسة نفيس بالصحراء ضمن أعلام المتصوفة والزهاد[24], فهؤلاء على ما يبدو لم تكن لديهم رؤية صوفية معينة, كما إن معرفتهم

بمستجدات التصوف وفروعه تكاد تنعدم لديهم بالمرة, وفضلاً عن ممارستهم التصوف بصورة تلقائية, فإنهم عاشوا تجربتهم الذاتية بمعزل عن تأثيرات خارجية واضحة, في حين مثل الاتجاه الثالث ما يمكن أن نطلق عليهم اسم (الغزاليين السذج) الذين تأثروا بالفكر الغزالي دون أن يتعمقوا فيه, أو تكون لهم رؤية فلسفية واضحة, لم يقتصر أصحاب هذا الاتجاه على الطبقة المتعلمة حيث كان بعضهم أميًا مثل أبي يعزى الذي نعتته المصادر بالولي العارف أو القطب[25], وقد مثل المتعلمون في هذا الاتجاه كل من أبو الفضل بن يوسف بن النحوي[26], وأبو عبدالله الدقاق السجلماسي[27], ثم تلميذه أبو مدين شعيب الذي لبس منه الخرقة[28], ويعلى أبو جبل[29], وأبو شعيب بن سعيد الصنهاجي[30], تميز هذا الاتجاه بارتكازه على ما يعرف بالكرامات والبركات, والتشديد على الجانب الأخلاقي أكثر من الجوانب الأخرى, والنزوع دومًا إلى السلام, فهو لا يعارض السلطة معارضة صريحة, بل يميل إلى معايشتها ومهادنتها, وتأثيره ناتج فقط من نفوذه الروحي, ويبدو أن هذا الاتجاه قد اكتسح مناطق شاسعة من بلاد المغرب العربي.

3. **العامل التاريخي:** إذا كانت العوامل الداخلية والخارجية كما اشرنا سابقًا قد ساهمت في انتشار التصوف, فلا سبيل لإغفال الرصيد التاريخي الذي سبق هذه الحقبة ومهد لها, تمثل ذلك في سيادة تيار الزهد الذي كان يدعو إلى الانعزال عن الملذات الدنيوية والاعتكاف على العبادة, وفي هذا الصدد ترجم ابن بشكوال لجملة من الأعلام الذين عاشوا حياة الزهد, واشتهروا بأعمال الخير والصلاح مثل تمام بن عفيف بن تميم (451هـ), وجماهر بن عبدالرحمن, وحماد بن عمار, ويونس بن عبدالله بن مغيث صاحب كتاب فضائل المنقطعين إلى الله عز وجل, وعبدالعزيز السوسي (ت476هـ)[31].

متى برزت هذه الظاهرة للوجود؟

على الرغم أن ظاهرة تعظيم الأولياء الصالحين لم تكن موجودة في البلاد الإسلامية لا في زمن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم, ولا في زمن أصحابه رضوان الله عليهم, إلا أنها أصبحت في أواخر عهد المرابطين في بلاد المغرب أمرًا واقعًا وجد قبول العديد من المؤيدين, وقد أشارت المصادر التي أمكن الاطلاع عليها إلى كثرة الأولياء الذين اعتادوا التجمع مع مؤيدهم في حلقات خاصة للذكر والأغاني الدينية وسماع الطقطقة[32], وهو ربما ما عرف ب(الحضرة) فيما بعد, فضلا عن اتخاذ ألوان من الأطعمة[33], وقد اعتبر الفقيه الطرطوشي ذلك بدعة وخروج عن الدين[34], ومهما يكن الأمر فإن تعظيم الأولياء الصالحين أصبح شيئا ملموسًا في بلاد المغرب العربي في أواخر عهد المرابطين, كما زاد التفاف العامة حولهم يومًا بعد يوم.

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا التف الناس حول الأولياء الصالحين وعظموهم واعتبروهم مثلهم الأعلى؟

للإجابة على هذا السؤال يمكن القول إن الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت وراء خروج هذه الظاهرة, كما أن الأولياء اجتمعت فيهم قواسم مشتركة حببت الناس فيهم نذكر منها:

1. **العامل الديني:** يعتبر الدين من أهم العوامل المؤثرة في المجتمع, فكلما كان الإنسان متدينا كلما ازداد احترام الناس وتقديرهم له, ومن هنا جاء تركيز اغلب الأولياء على هذا الجانب, وإن تظاهر بعضهم بذلك لينال رضاء الناس, ومن خلال تتبعنا للعديد من تراجم الأولياء تبين أن السواد الأعظم منهم تمكنوا من الحصول على العلوم الدينية, في حين لم تكن سوى أقلية صغيرة منهم أمية, فمن خلال 107 تراجم التي أوردها ابن الزيات لا نجد إلا 7 أوليا من الأميين, مثل أبي يعزى[35], ومع ذلك فإن المصادر نسبت إلى هذا الأخير قدرته على إدراك عالم التصوف[36], بل يقال أن بعض الفقهاء كانوا يحضرون مجلسه[37], ورغم أن الولي يعلى أبا جبل كان أميًا فقد ظل يحده الأمل في التعلم فكان "إذا علمه أحد آية من القرآن أو مسألة من دينه أعطاه درهمًا"[38], أما بقية الأولياء فقد امتلكوا ثقافة دينية متينة, وتعاطوا بمختلف

العلوم, وحسبنا أن الشيخ أبا مدين شعيب اقتنع من خلال تجربته الصوفية أن الله لا يعبد إلا بالعلم[39], لذلك لم يتقاعس في التردد على مجلس أستاذه ابن حرزهم[40], ويمعن في دراسة رعاية المحاسبي وكتاب السنن[41], وحسبما تذكره بعض النصوص فقد دارت بينه وبين أحد مشايخ الموحدين مناظرة حول عقائد التوحيد سنة 541هـ وهي السنة التي أطاح فيها هؤلاء بالحكم المرابطي[42], كما كان متعمقًا في شرح القرآن, متمكنًا من الحديث, وخصوصًا جامع الترميذي[43], كما اعتبر ابن الحطيئة اللخمي "رأسًا في القراءات السبع"[44], كما اشتهر الولي محمد بن الحسين الميورقي بعلو كعبه في مختلف العلوم, لذلك تقاطر عليه طلاب العلم من كل صوب وحدب[45].

2. **المكانة الاجتماعية المتواضعة للولي:** استنادًا على كتاب التشوف وغيره من كتب المناقب يمكن تحديد المكانة الاجتماعية للأولياء إذ كان معظمهم من الحرفيين والمزارعين والرعاة أي أنهم من طبقة البسطاء معدومي الدخل, فأبا عمران موسى كان حلاجًا للقطن[46], وأبو عبدالله الأربش كان من المزارعين[47], ومن الرعاة كان الولي أبومدين شعيب[48], أما الولي ابن العريف فقد كان يشتغل في الحسبة[49], كما تميز اغلب الأولياء بهامشيتهم الاجتماعية, فكثير منهم لم يتزوج ولم يندمج في المجتمع[50], وإذا ما تزوجوا كان اغلبهم يطلق ليتفرغوا للسياحة والعبادة[51].

3. **الإكثار من التعبد:** تميز الأولياء بمجاهدة النفس وكثرة العبادة والتعبد لله, فأبو عبدالله محمد بن علي كان يقضي الليل "يقرأ ويردد الآية بعد الآية ويبكي"[52], أما أبو زكريا يحيى بن محمد بن صالح الجرطاوي من بلد هسكورة "فكان عبدًا صالحًا مجتهدًا كثير البكاء والخوف من الله تعالى, ومازال يبكي حتى سقطت عيناه من كثرة البكاء, فلما عمي ضاعف أعماله وأوراده[53], وكان إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي "شديد الصفرة من كثرة الصيام والعبادة"[54], بينما كان ولي أخر يقضي الليل "منتصبًا في مصلاه كأنه وتد مضروب في الأرض من طول القيام"[55], وتذكر إحدى الروايات أن أبا الفضل بن النحوي اختلى في أحد البيوت ليصلي فأخذ ابنه السراج وأدناه من عينيه فلم ينتبه إليه ولم "يحس به لحضوره مع الحق وغيبته عن

الخلق"[56], أما أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي فكان إذا وقف في صلاته يطيل القيام حتى سمي بأبي السارية[57].

4. **التقشف:** وصف ابن العريف تقشف الأولياء في بلاد المغرب بأنه: "الترفع عن التلطخ بقاذورات الدنيا وأهلها"[58], إلا أنه بالغ في أن الأولياء قد اتبعوا في تقشفهم النموذج النبوي, ويفهم ذلك من وصفه لأحد منازل الأولياء لبساطة ذلك المنزل, وجاء تعليقه بالقول: "ولو شاء لكانت له الفرش اللينة, لكنه رحمه الله لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كثيرًا ما يأمر أصحابه بالتصبر على المكاره وعلى خشن الملبس أمر نفسه بذلك"[59], وبإلقاء نظرة على النصوص المتناثرة التي تخص طعامهم وثيابهم وسكناهم نخلص إلى أنهم مالوا إلى التقشف لإظهار ولايتهم, إذ تجمع المصادر على تواضعهم وقلة إسرافهم, وحسبنا أن أحد الأولياء كان لا يأكل إلا خبز الشعير بالماء[60], بينما اقتصر الولي المشهور ابن حرزهم على أكل الخبز واللبن[61], بل إن أبا موسى الدكالي لم يعود نفسه إلا على أكل بعض النباتات[62], وعلى العموم تشدد الأولياء في مقاومة شهوات بطونهم, ولم يأكلوا إلا ما يضمن لهم رمق العيش, وحسبنا دليل على ذلك أن الولي أبا محمد بن عبدالعزيز التونسي كان يقتات مدًا من الشعير فقط كل اثني عشر يومًا[63], كما تقشف الأولياء في لباسهم واقتصروا على الخشين من الثياب, فأبو الفضل يوسف بن النحوي "هجر اللين من الثياب ولبس الخشن من الصوف[64], واكتفى الولي أبو الحجاج يوسف الكلبي بارتداء عباءة الصوف[65], وكان الولي أبو عمران موسى بن إسحاق الوريكي "محلوق الرأس, حافي القدمين, وعلى جسده كساء صوف بال"[66], أما بيوتهم فقد وصفتها المصادر بأنها كانت بسيطة جدًا وخاوية من الأثاث إلا الحصائر والسجاد, بينما سكن بعض الأولياء في الكهوف أو الجبال, فالولي أبو الحسن علي الصنهاجي كانت له خيمة من شجر يأوي إليها[67], في حين لم يكن لولي آخر يأوي إليه سوى ظلال الأشجار والمساجد وبطون الوديان[68].

وباتخاذهم لهذا المسلك التقشفي جلب إليهم محبة العامة وتقديرهم, وخير مثال على ذلك أن الولي أبو محمد عبدالجليل بن ويحلان كان إذا صلى الجمعة وانصرف إلى منزله "فلا يصله إلا في أول وقت العصر من كثرة ما يحبسه الناس للدعاء والتمسح به"[69], حتى وصف بأنه "رجل وضع الله له القبول في قلوب الخلق"[70], وكان الناس لفرط محبتهم بالولي الشيخ أبي العباس البرنسي يتمسحون به ويتبركون ويتوسلون به إلى الله لقضاء حوائجهم[71], وكان بعض الآباء يحثون أبنائهم على الذهاب إلى الأولياء التماسًا لدعائهم وبركتهم, ويوصونهم باحترامهم وتقبيل أيديهم متى لقوهم "ولو مائة مرة في اليوم"[72], أما العوام فكانوا بدورهم يتقاطرون على الأولياء لحل مشاكلهم أو التبرك بهم[73], ومِمَّا يؤكد تعلق العامة بالأولياء ما ذكره ابن القاضي, أنه ذهب لزيارة ولي فرأى الناس يزدحمون عليه ويقبلون رأسه ويديه[74], وعلى الرغم من أن هذه المعلومات أخذت من مصادر ومخطوطات لا يرقى إليها الشك إلا أنها تعبر عن حالة من الجهل الذي ساد منطقة البحث.

5. **الجانب الإنساني:** يشكل هذا الجانب كذلك قاسمًا مشتركًا بين جل الأولياء, ومن خلال الاطلاع على بعض تراجم الأولياء في فترة البحث يبرز هذا الجانب جليًا في سلوكهم وتصرفاتهم, متجلياً في قيم الرحمة والإحسان التي جعلوها مبدأ وغاية, حتى صارت من مكونات شخصيتهم, فقد جبلوا على مشاركة الفقراء إحساسهم بمرارة الفقر, وبذل ما ملكت أيديهم بسخاء, حتى إن الولي أبا العباس جعل مبدأ الصدقة والإحسان أساس لتعامله اليومي[75], كما باع الولي ابن قسي كل ما يملك وتصدق به على الفقراء والمعوزين وذوي الحاجات[76], وتطلعنا المصادر بهذا الخصوص بأن الأولياء تعاملوا حتى مع الحيوانات بلطف وحنية حتى أن الحيوانات أطاعتهم وخضعت لهم, الأمر الذي لم نجده عند صحابة رسول الله رضوان الله عليهم, ويبرز هذا الشعور الإنساني المرهف في تعاملهم مع مختلف الكائنات والحيوانات المفترسة والأليفة, فأبو مدين كانت تأتيه غزالة كل يوم تتمسح به, كما كانت الكلاب تبصبص أمامه[77], وعرف الولي ابن حرزهم بمعاشرته للأسد[78], ويذكر الهروي أن الولي أبا

عبدالله التاودي دخل يومًا بيته ليأخذ منه كساءه فوجد هرة نائمة لم يرد إزعاجها, وترك الكساء حتى استيقظت, وفي السياق نفسه, ورد في ترجمة أحد الأولياء أنه كان يقطع شجر سدر فصادف رجل قنفد فكسرها, فألمه ذلك فعمد إلى ربطها بجبيرة وأخذ يطعمه ويرعاه إلى أن أنجبرت[79].

فهذه النصوص تريد أن تقنعنا أن كل هذه الأشياء الخارقة لمستواء العقل البشري العادي اعتبرت كرامة من الكرامات التي يمتلكها الولي وأنها ميزة خاصة ميزه الله تعالى بها دون غيره من البشر, متناسيين أن التفكير المغربي قد ساده خلال فترة البحث الكثير من القصص التي تنسب خوارق ومعجزات لأصحابها والتي آمن بها الكثير من الناس مِمَّا كان له أثر كبير في حياة السكان وهذا يرجع إلى البساطة والسذاجة التي كان يتصف بها عامة الناس مع جهلهم بروح الإسلام وأحكام القرآن التي تقرر أنه لا يعلم الغيب إلا الله, ومع ذلك فلابد لنا أن نتطرق لمفهوم الكرامة والتي يكون خروجها وقت الأزمات واضحًا, ليأتي توظيفها برموزها المتنوعة والهادفة للتعبير عن رؤيته في إصلاح المجتمع, وإذا كانت تبدو في الظاهر رواية مقتضبة أو حكاية خيالية, فإنها في العمق ظاهرة كلية متعاضدة مع النظم والمعتقدات الاجتماعية, غير أن خطابها في الغالب الأعم خطاب غير مباشر, يعتمد على الرمز والتمويه والمناورة واللف والدوران, للإفصاح عن جملة من التطلعات والهواجس الخفية, والإعراب عن مواقف لإعادة بناء المجتمع, وقبل تحليل مواقف هذا التيار من خلال بعض كرامات الأولياء نتساءل عن مفهوم الكرامة وموقف الفقهاء منها؟ إذ يعرفها الباحث الكتاني بأنها بنية أساسية في الفكر البشري, وهي كالبنية العقلانية مرتبطة بنمط مجتمعي وبأسلوب معيشي في الوجود, وهي ممارسة لمعتقد ديني, وتأكيد لهذا المعتقد[80], أما في التراث الصوفي فهي: "كل بعد خارق للعادة ظهر على يد عبد ظاهر الصلاح في دينه, متمسك بطاعة الله في أحواله"[81], ويشترط ابن القنفد صحة الولاية كشرط أساسي لصحة الكرامة[82], واعتبرها أبو مدين مكملة لمعجزات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام[83], وتتراوح الكرامة

الصوفية بين رؤية الموتى والكلام معهم, إلى تسخير الحيوانات والجماد والمشي على الماء والطيران في الهواء, وطي الزمان والمكان, إلى التنبؤ وخرق كل قانون طبيعي, وقد أثير جدل حاد بين من أقروا بصحتها, ومن أنكروا ذلك, فالاشاعرة أفتوا بصحتها ووجوب التصديق بها, فعلل ابن رشد ذلك بحجتين: التواتر في النقل وإجمال أهل السنة والجماعة, بل ذهب إلى حد اتهام المنكرين لها بالجهل والضلالة[84], وعلى منواله أقر ابن خلدون بصحتها وانتقد كل من أنكرها[85], بينما وقف المعتزلة موقف الدفاع لها, الرافض لصحتها[86], وعلى كل حال, فإن الكرامات عرفت ذروتها خلال العقود الأخيرة من العصر المرابطي, لان الفكر الكرامي ينشط أبان الأزمات, ووظفت من قبل التيار الصوفي كأداة للنقد والدعوة لإصلاح المجتمع وإعادة بنائه, ويُخيل إلينا أن استناده على الكرامة الصوفية لتمرير خطابه يرجع إلى العديد من الأسباب منها:

ا ـ إن الكرامة هي أكثر الطرق التواء وتمويهًا وتسترًا لتوجيه النقد والتعبير عن المواقف, وطرح التصورات البديلة دون الخوف من التعرض لاضطهاد مباشر.

ب ـ إنها أكثر الأساليب نزوعًا إلى السلم, وبما أن المتصوفة لم يكونوا يملكون القدرة على مجابهة خصومهم عن طريق العنف, فإنهم وجدوا فيها المنبر الذي يوجهون منه أفكارهم.

ج ـ إن الكرامة بمالها من ارتباط وثيق بالدين, وارتكازها على نصوص مقدسة, حتمت على السلطة احترامها ولو على مضض, ناهيك عن الاحترام العميق الذي يكنَّه لها الجمهور, فالدين بنصوصه ووظيفته النفسية يهيئ الذهن لتقبلها[87], نخلص مِمَّا سبق أن الكرامة اعتمدت على التيار الصوفي المسالم وأن الأولياء من نتاج الفكر الفلسفي الصوف الذي ظهر في بلاد المغرب في أواخر العهد المرابطي.

ومن الملفت للانتباه هنا أن العامة قد مزجوا أساطير خرافية اظهروا فيها قيام الأولياء من خلال كراماتهم التي منحها الله لهم بأعمال خارقة ومستحيلة بالنسبة للبشر العاديين, نذكر منها

على سبيل المثال لا الحسر: القول بأن بعض الأولياء قد احضر أشخاص يبعدون عنه الآلاف الكيلومترات, ويفصله عنهم العديد من البحار والمحيطات كإحضار الولي عبدالسلام الأسمر للسيدة (عسيله) من بلاد الروم بمجرد الطرق بيده على دفة البندير, كما حج ولي آخر ورجع إلى أهله في نفس الليلة قبل اكتشاف الطيران, والمشهور ب(حج في ليلته وروح لعيلته), كما توضئ ولي آخر من إناء الماء دون أن ينقص منه شيء, أو ذلك الذي يمشي على الماء, كما إن بعض الأولياء الذين اعتمدوا في كسب قوتهم على صيد الأسماك, إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا ارتبطت اغلب كرامات الأولياء الصالحين بالماء؟

للإجابة يمكن القول أن كرامات الأولياء جاء تركيزها على الماء باعتباره أساس الوجود, فماء الوضوء في هذا النص يرمز إلى التطهر وإزالة النجاسة, وغسل الذب والإعداد للحياة النقية, أما بقاء الماء على حاله دون نقصان فيرمز إلى استمرار فرصة التوبة, وفتح الباب أمام كل راغب في دخول المجتمع الجديد متطهرًا من عيوبه وذنوبه, والماء في حد ذاته رمز للحياة الجديدة وإعداد للحياة النقية الخالية من الشوائب[88], كما إن المشي فوق سطح البحر, والذي ورد في العديد من النصوص[89], فإنه يعني عند الصوفية الدخول في بحر هذه الحياة النقية لاعتبارهم ماء البحر رمز لاستمرار الحياة الطاهرة ونجاة لمن يرغب في الخلاص, وفي هذا الصدد ذكر التميمي "أن قومًا عطشوا حتى اشرفوا على الهلاك, فاستغاثوا بالولي أبو عبدالله بن سالم فدخل إلى البحر حتى بلغ صدره فأخذ يغرف بكفيه فسقاهم ماء عذبًا حتى رووا جميعًا"[90], يفهم من هذا النص أن الماء قد لعب دور المنقذ والولي المتصوف يؤدي دور الوسيط في عملية الخلاص.

كما نلاحظ أن العديد النصوص التي تزخر بذكر سياحة الأولياء في السواحل وكسب قوتهم عن طريق صيد الأسماك[91], فالسمكة عن الولي الصوفي هي رمز للتجدد, كما أنها في الأساطير العربية والأديان اللاهية تدل على الانبعاث والتطهر من الخطيئة, ولعل قصة النبي يونس خير قرينة على ذلك[92], والرغبة نفسها في البحث والتجدد تتضمنها كرامات أخرى صورت قدرة أحد الأولياء على تحويل التراب إلى ذهب, وذكر الزيات أن رجل جاء إلى الولي أبو عمر بن ميكسوط الدغوغي فطلب منه الولي أن يمنحه علبة مملؤة بالدراهم وليقنع الرجل

بأنه لا حاجة له بالنقود وإنما أراد أن يخلصه من آثام النقود التي معه فقال له: "أردت أن أخذ منك ما تحاسب عليه, ولو أردت أن تكون داري فضة لكانت, فنظر الرجل إلى الجذران وقد انقلبت إلى فضة ثم قبض على التراب الذي كان يحفره فإذا هو انقلب ذهبًا[93], وهنا أراد الفكر الصوفي أن يجعل هذا التحول في الاتجاه الأسمى, أي من التراب الرخيص إلى المعدن النفيس أي الذهب, ومن هنا يقنع العامة بأن الأولياء بإمكانهم تغيير الكون من حياة قذرة إلى حياة سامية[94].

ولا تقل كرامة أخرى شأنًا في الإفصاح عن رغبة المتصوفة في بث مجتمع جديد وبنائه انطلاقًا من الصفر إذ يخبرنا الصومعي أن رجلاً قصد الولي أبا يعزى للدخول في طريقة التصوف فتخيل للرجل كأن الولي أمسك قادومًا كسر بها جميع أعضائه, ثم أخذ يركبه تركيبًا جديدًا من قدمه حتى دماغه, حسب تعبير صاحب الرواية[95], وهي رواية غنية عن كل بيان, تعكس طموح المتصوفة في إعادة بناء العنصر البشري في المجتمع المنشود, ويتضح مِمَّا سبق أن الموقف الصوفي الذي يوجد في ثنايا الكرامات الصوفية سعى إلى الخروج من الأزمة عن طريق إلغاء المجتمع القائم في محاولة منه في إعادة خلق مجتمع جديد.

نخلص مِمَّا سبق أن المجتمع كان يئن بالأزمات والمشاكل والجهل, فالتجأ العامة إلى الأولياء أملاً في خلاصهم مِمَّا هم فيه, وإقامة مجتمع يخلو من التناقضات, يعيش فيها الإنسان والحيوان والنبات في علاقات حميمة ينعدم فيها الاستغلال العدواني, فجاء تعظيم الأولياء من قبل العامة, ونسبوا لهم أشياء خارقة للبشر ولا تأتي إلا لولي, فوصفوهم بصفات تفوق وصف الأنبياء, فتكشف بعض الكرامات مدى استئناس الإنسان بالحيوانات المفترسة, إذ يخبرنا ابن الزيات بأن الولي ابن حرزهم كان يربض أمامه أسد, وكان الولي يمسح عنه بيده ويفتل إذنيه دون أن يتجرأ الأسد على إذائه[96], ويضيف ابن الزيات أن الولي ابن يعزى كان يمسح بيده وهو طريح الفراش على ثور, وكان الثور يلحس جسد الولي بلسانه[97], بل إن الحيوانات المتنافرة نفسها في حضرة الأولياء هي الأخرى لا تخضع لقانون الطبيعة فتتعايش وتذوب بينها الروح العدوانية, ففي رواية عن أبي يعزى الآنف الذكر, أن وفدًا من مرديه عزموا على زيارته, فلما وصلوا إليه تركوا دوابهم على بعد مسافة من منزل شيخهم, وعند خروجهم وجدوا سباعًا رابضة إلى

جانب دوابهم, فلا السباع افترست الدواب ولا الدواب نفرت من السباع[98], أي أنه مجتمع يحس فيه الكائن بالطمأنينة والأمن والسلام, ولم يقتصر الاندماج في هذا المجتمع على الإنسان والحيوان أو الحيوانات فيما بينها, بل شمل كذلك النبات والطبيعة إلى درجة أن نظرة الإنسان وعاداته تتغير تجاه المألوف والشائع, فنبات الحنظل الذي يحوي على مرارة قل نظيرها, يصير حلو المذاق, ويكون أكل الجمر الأحمر من ناره, والزجاج, والضرب بالسيف بأن يدخل من البطن ويخرج من الظهر أو العكس مألوفًا لكل من اعد نفسه لهذا المجتمع الذي نادى به الأولياء المتصوفة, وزد على ذلك أن أحد الكرامات ذكرت أن النخيلات المنتشرة ببحيرات الرقائق بمراكش شاركت في جنازة أحد الأولياء [99], ورغم ما تحمله هذه الكرامات من مبالغة لا يمكن تصديقها, إلا أنها تعكس نظرة الأولياء وطموحهم في خلق مجتمع مثالي لا يتقيد بالزمان ولا المكان تتعايش فيه كل الكائنات الحية.

العوائق التي تحول دون بناء مجتمع مثالي وكيفية تعامل الأولياء معها:

جاء تركيز الأولياء الصالحين على العديد من العوائق الحائلة دون بناء المجتمع في محاولة منهم لتغيير الواقع المتردي إلى واقع مثالي يشعر فيه المواطن بالارتياح والقبول, ومن خلال تتبعنا للمصادر المهتمة بهذا الجانب يمكن أن نحدد بعض من هذه العوائق على النحو الآتي:

الجانب الاقتصادي: بإلقاء نظرة معمقة على الحكايات الكرامية يتضح أن الأولياء أرجعوا سبب الوصول إلى المجتمع المثالي إلى المال, لذا صبوا جام غضبهم عليه, وتظاهروا بكرههم له, فوصفوه أحيانًا "أوساخ الناس"[100], ووصفوا من يمتلكه "بالشياطين"[101], ورفض بعضهم امتلاكه, وخير مثال على ذلك أن الولي أبوبكر يحيى بن محمد أقام مدة "لم يعقد على دينار ولا درهم"[102], ويصور ابن الزيات[103] وغيره[104], موقف الأولياء من المال في رواية بالغة الدلالة وردت في ترجمة الولي الشيخ أبي مدين شعيب, ذكر فيها أن بعض الحيوانات ألفت صحبته في خلوته, غير أنها أنكرته في إحدى الأيام بسبب دراهم توفرت لديه, كما تنازل الولي ابن حرزهم على ميراث من أبيه خوفاً من أن يشغله على الصلاة والعبادة[105], يفهم من ذلك أن الأولياء نبذوا المادة واعتبروها أساس الصراعات الاجتماعية.

ومقابل ذلك صور الفكر الكرامي الأموال الخاصة بالأولياء وسماها "بالدراهم الطرية", وذكر الصومعي في هذا المعنى أن رجلاً أتى بدراهم إلى الولي أبي عبدالله التاودي, فرفض الولي قبولها, فالح عليه الرجل أن يأخذها, فرفع الولي سليخة أي (نطع) كان يجلس عليه فرأى الرجل دراهم كثيرة طرية, فعلم الرجل أن الولي غني بدارهم الله لا بدراهم البشر[106], نخلص مِمَّا سبق أن الفكر الكرام لم يستطع إنكار المال وما يمثله من أهمية لدى البشر ولكنه صنفه إلى دراهم طرية طاهرة يمنحها الله للأولياء ليتنافسوا في خدمة البشر, وقد ذكر ابن الزيات أن رجلا مستضعفًا جاء إلى أحد الأولياء وشكا له عن عدم قدرته على شراء أضحية العيد "فمد هذا الأخير يده في الهواء وقبضها ومده بدراهم طرية جديدة"[107], نفهم من هذه الرواية إن الدراهم نوعان, النوع الطري الطاهر وهو ما في حوزة الأولياء ودراهم نجسة ملطخة بقاذورات الدنيا وهي التي يتعامل بها العامة فيما بينهم.

الجانب الأخلاقي: يبرز هذا الجانب من خلال الكرامات الصوفية للأولياء الصالحين, وقد جاء انعكاسًا لحقبة تردت فيها السلوكيات الأخلاقية, وانعدمت فيها القيم والمبادئ, واستشرى فيها الفساد, فعبرت برموزها الخاصة عن إدانتها لهذا التردي, مستعملة عنصر (المكاشفات) أو الرؤية بالقلب, وأظهرت أن الولي له القدرة على اكتشاف أسرار الناس, والوقوف على فضائحهم الأخلاقية التي يصرون على كتمانها, فمن الكرامات المشهورة التي انفرد بها الولي أبو يعزى قدرته على الاطلاع على أحوال الوافدين إليه, فقد فضح أحد مريديه بأنه زنى مع زوجة أخيه الغائب[108], كما كشف خيانة رجل آخر باعتدائه على إحدى الأمانات[109], وكشف لآخر بأنه تارك للصلاة[110], إلى غير ذلك من المكاشفات التي تترجم دعوة صريحة للتحلي بالمثل العليا والصفات الحسنة, وتعرب عن التذمر من مجتمع نخره الفساد الأخلاقي دون أن يجد سلطة حازمة تضع حدًا لاستشراء الفساد والمنكرات.

نخلص مِمَّا سبق أن الكرامات الصوفية عبرت عن موقف التيار الصوفي المسالم, وخطته لبناء جديد تسوده العدالة الاجتماعية, وتنتفي فيه أساليب الاستبداد والعدوانية والاستغلال والظلم والجور, وأرادت أن تثبت أن الأولياء وحدهم مؤهلون لقيادة المجتمع, وعلى الرغم من أهمية المواقف التي تبناها هذا التيار الصوفي يمكن أن نخرج بخصوصها بعدد من الملاحظات منها:

أن البديل الذي طرحه هذا الفكر لم يرق إلى مستوى طرح حل شمولي وجذري للازمة بل طرحت حلول انفرادية ومؤقتة[111], كما يتميز هذا البديل بروحه الانهزامية فهو يمجد الفقر, ويقهر النفس, ويحقق الرغبات بالتمنيات, ويستسيغ الموت, وكلها حلول تبرز عجز المتصوفة عن مجابهة الواقع المرير بالطرق الممكنة للانتصار عليها, كما يوصف هذا التيار باعتماده على مناهضة الجور والظالم بالدعاء والنزعة الإتكالية وإرجاع الأمر إلى الله, وهي مناهضة سلبية لا تقوم على العقل ولا على الثورة لتغيير الواقع, كما تميز البديل الذي طرحه الأولياء عبر كراماتهم بالتطرف المثالي, فهم يريدون أن يقيموا مجتمعًا مثاليا جديد ويدمروا المجتمع القديم, ويلغوا المادة نهائيا, ويقيموا علاقات جديدة لا تسودها العدوانية والصراع, أي أنه بديل يدغدغ العواطف, ويقفز فوق الواقع, ويسبح في المثاليات.

وحصيلة القول أن التيار الصوفي الذي اعتمد على الكرامات كأسلوب للنقد, كانت له مواقف من أزمة المجتمع وقضاياه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية, وهي مواقف تم الكشف عنها من خلال الكرامات التي وظفت من قبل المتصوفة لمناهضة الأوضاع السائدة في المجتمع, غير أن البديل الذي طرحوه اتسم بجنوحه نحو المثالية, والتناقض, والحلول الانهزامية ولكنه مع ذلك كان مؤثر ومازالت بعض آثاره بارزة إلى يومنا هذا.

دور الأولياء الصالحين في المجتمع:ـ

لا جدال في أن استناد الأولياء على الكرامات مع ما لها من وظيفة نفسية على قطاع عريض من الشرائح الاجتماعية, جعلهم يلعبون أدوارًا مهمة داخل المجتمع, وعلى الخصوص في الميدان الاجتماعي والاقتصادي, لأن الفرد في أي مجتمع من المجتمعات تتعاقب عليه حالات يشعر فيها بالخوف من البشر سوى كانت سلطة سياسية أو لصوص, أو من الطبيعة كالفقر أو المرض أو كوارث ومجاعات, أو العجز عن تحقيق رغباته كإنجاب الأطفال, مِمَّا يجعله يلجئ للولي كالسبيل الأوحد لتحقيق مسعاه[112].

وتعكس النصوص التي تم الاطلاع عليها إلى صحة هذه القاعدة, إذ تكشف أن الأولياء قاموا بدور اجتماعي لا يمكن إنكاره, فقد كان العوام يلجأون إليهم كلما حاق بهم مكروه, أو كارثة

طبيعية كالقحط والجفاف, والتي كانت نتيجتها دائمًا المجاعات, وفي هذا السياق ورد في ترجمة الولي يعلى أبي جبل أن قحطًا ضرب مدينة فاس في أحد الأعوام, فبعث أهاليها رسولاً إليه نيابة عنهم في التماس دعواته لهم بنزول المطر, فما رجع الرسول حتى غيمت السماء وغيث الناس[113], كما شهدت مدينة فاس جفاف آخر في بعض السنوات فاستغاث أهلها بالولي أبي يعزى وقصده الناس في المسجد الذي كان يقيم فيه: "فأخذ في البكاء إلى الله والتضرع له إلى أن غيمت السماء وهملت بالأمطار"[114], وثمة نصوص إضافية أخرى حول دور الأولياء في الاستسقاء[115].

كما كان بروز دور الأولياء المتصوفة في علاج المرضى مثير للانتباه, ولا غرو فإنهم تجشموا عناء معالجة الأمراض التي عجز عنها الأطباء, وهذا ما يفسر قول ابن المؤقت عن ميمون الصحراوي اللمتوني بأنه "كان من أهل الصلاح والطب الروحاني"[116], وفي المعنى نفسه ذكر الشراط أن طفلاً صغيرًا أصابته في رأسه قروح لم ينفع معها علاج الأطباء, فزار أهل الطفل الولي يعلى أبو جبل الذي نجح في علاجه, وينقل المؤرخ نفسه عن راوٍ وصفه بالثقة إن طفلاً آخر بلغ أربعة أعوام ولم يقدر على الكلام فأشير على أبيه بزيارة الولي ابن حرزهم فزاره, فدعاء الولي للطفل بالشفاء فشفيا, وعند رجوعه "تلقاه الناس يهنئونه بكلام ابنه"[117], كما تمكن الولي نفسه من إبراء امرأة مقعدة[118], ونجح ولي آخر إذا ما صدقنا الرواية من أشفاء صبية من مرض البرص وذلك بوضع ريقه على موضع البرص[119], كما تمكن الولي أبا يعزى الذي اشتهر بعلاج الأمراض المستعصية إذ تمكن من إبراء امرأة من مرض العمى بمسح عينيها بيده[120], كما قام بعلاج رجل أعمى بأن اقتطع قطعة من برنوصه وأمره أن يحرقها بالنار وان يتكحل برمادها[121], كما اعتاد على معالجة كل من يقصده مريضًا عن طريق (التفل) على مكان الإصابة[122], كما عرف بمهارته في علاج أمراض الصرع والمقعدين[123], فحج إليه الكثير من العوام يأتيه بعضهم بأواني بها الزيت وطعام ليبللها بريقه أملاً في الشفاء[124].

الخاتمة والنتائج:

حاول هذا البحث أن يحيط ببعض الجوانب من تاريخ المجتمع المغربي ورصد الذهنيات السائدة فيه خلال الحقبة المرابطية.

وفي هذا الإطار تمت معالجة ظاهرة الأولياء والمتصوفة, فبين ما انطوت عليه رؤية بعض الكتابات لتفسير أسباب ظهورها, وتم رصد التيارات الصوفية السائدة فاتضح أن التصوف انتقل خلال هذه الحقبة من التصوف الساذج إلى التصوف الفلسفي, كما تم إبراز الأصول الاجتماعية للمتصوفة, فتبين أن معظمهم يرجعون إلى أصول فقيرة, وفي الوقت ذاته جرى تحليل موقف المتصوفة من المجتمع, فاتضح أنه اختلف من التيار المعتدل المسالم إلى التيار المتطرف.

وبفضل ما تجمع من مادة جديدة, أمكن الوقوف على دور المتصوفة في المجتمع, فتبين أنهم لعبوا دورًا هامًا كلما حل قحط أو مجاعات, كما حاولوا التخفيف على الفقراء من عبء الضرائب ومساعدة اليتامى والأرامل وإطعام الغرباء ومعاونة الدائنين, فضلاً عن دورهم الأخلاقي والدعوة إلى القيم الدينية.

الهوامش:-

---

[1] ابن أبي زرع, أبو الحسن علي بن عبدالله: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس, جزان, تحقيق محمد الهاشمي الفيلالي, الرباط, 1936م, ص137.

[2] المراكشي, عباس بن إبراهيم : الأعلام بمن حل مراكش واغمات من الأعلام, ط1, ج3, فاس, 1936م, ص252.

[3] عنان, محمد: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس, القاهرة, 1964م, ص411.

[4] ابن خلدون, عبدالرحمن بن محمد (808هـ): العبر, تحقيق خليل شحادة, ج6, بيروت, 1981م, ص247.

[5] علال الفاسي: التصوف الإسلامي في المغرب, مجلة الثقافة المغربية, عدد 1, يناير– فبراير, 1970م, ص39.

[6] الجراري, عبدالله بن العباس: تقدم العرب في العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا, ط1, دار الفكر العربي, 1961م, ص28.

[7] ابن أبي زرع, م س, ص174.

[8] المصدر نفسه, ص60.

[9] التادلي, أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبدالرحمن: التشوف إلى رجال التصوف, نشره وصححه أدولف فور, الرباط, 1958م, ص210.

[10] المتيجي, أبو علي (عاش في العصر المرابطي) رسالة في تحقيق اتجاه قبلة الصلاة بالمغرب, مخطوطة, ص142.

[11] ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى, تحقيق بن منصور, الرباط, ص66.

[12] الشراط: الروض العاطر الأنفاس, (مخطوطة), الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات, الرباط, ورقة 9ب.

[13] ابن القاضي, أحمد بن محمد بن محمد: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس, طبع حجر, فاس, 1209هـ, ص358.

[14] ابن صعد, أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي الفضل التلمساني الأنصاري (ت901هـ): النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب, الخزانة الحسنية, رقم 2491, ص182.

[15] الصومعي, أحمد بن أبي القاسم بن محمد الشعبي الهروي التادلي (ت1013هـ): المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى, الخزانة الحسنية, (مخوطة), ورقة 23ب.

[16] المصدر نفسه, ص103.

[17] التادلي: م س, ص185.

[18] القابسي, محمد علي: الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب, مجلة البيئة, العدد 32, سنة 1962م, ص63 – 64.

[19] ابن بشكوال, أبوالقاسم خلف بن عبدالملك: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس, جزءان, نشر وتصحيح عزت الحسيني, القاهرة, 1955م, ص181.

[20] المصدر نفسه, ص184.

[21] ابن القاضي: م س, ص409.

[22] التادلي: م س, ص378.

[23] عياض, أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي: (ت سنة 544هـ), الأعلام بحدود قواعد الإسلام, تحقيق محمد بن تاويت الطنجي, الرباط, 1964م, ص129.

[24] ابن الزيات: م س, ص89.

[25] ابن القنفد, أبو العباس أحمد بن حسين (ت 810هـ), الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية,تحقيق محمد الشاذلي النيفر, وعبدالمجيد التركي, تونس, 1968م, ص63.

[26] ابن الزيات: م س, ص95.

[27] ابن القنفد: م س, ص27.

[28] الصومعي: م س, ورقة 188. ابن أبي وزرع: م س, ص270.

[29] ابن أبي زرع: م س, ص170.

[30] المصدر نفسه, ص265.

[31] عياض: م س, ص168.

[32] الطرطوشي, أبوبكر محمد بن الوليد (ت 520هـ): رسالة في تحريم الغناء واللهو على الصوفية في رقصهم وسماعهم, (مخطوطة), الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط, ورقة 105ب.

[33] عفيفي: المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها, مصر, شركة فن الطباعة (د.ت), ج3, ص185.

[34] الطرطوشي: م س, ورقة 110.

[35] ابن الزيات: م س, ص129.

[36] ابن عبدالملك: الذيل والتكملة, ط1, ج6, بيروت, 1976م, ص419.

[37] الصومعي: م س, ورقة 104ب.

[38] ابن الزيات: م س, ص102.

[39] ابن القاضي: م س, ص531.

[40] العبدوني, محمد بن عبدالكريم (دفين أبي الجعد سنة 1189هـ): يتيمة العقود الوسطى في مناقب الشيخ سيدي المعطي, (مخطوطة), الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط, ص377.

[41] الصومعي: م س, ورقة 72ب.

[42] المصدر نفسه ورقة 124.

[43] التنبكتي: كفاية المحتاج, ج1, ط2, القاهرة, 1963م, ص190.

[44] ابن القاضي: م س, ص116.

[45] ابن الآبار, أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ), التكملة لكتاب الصلة, تعليق ونشر الفريد بل وابن أبي شنب, الجزائر, 1919م, ص129.

[46] الصومعي: م س, ورقة 115.

[47] السلفي, أحمد بن محمد بن أحمد (ت 576هـ): أخبار وتراجم اندلسية, ط1, تحقيق د. احسان عباس, بيروت, 1963م, ص295.

[48] الصومعي: م س, ورقة 171.

[49] ابن الآبار, أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت658هـ), إعتاب الكتاب, تحقيق د. صالح الأشتر, دمشق, 1961م, ص70.

[50] ابن الزيات: م س, ص161.

[51] المصدر نفسه, ص422.

[52] التميمي, أبو عبدالله محمد بن قاسم بن عبدالكريم الفاشي (ت 604هـ): المستفاد من مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد, (مخطوطة), ص25.

[53] الصومعي: م س, ورقة 196.

[54] ابن الزيات: م س, ص242.

[55] المصدر نفسه, ص255.

[56] المصدر نفسه, ص96.

[57] المصدر نفسه, ص188.

[58] ابن العريف, أبوالعباس أحمد بن موسى الصنهاجي (توفي في مراكش سنة 536هـ): مفتاح السعادة وتحقيق الإرادة, (مخطوطة), الخزانة الحسنية, ص701.

[59] المصدر نفسه, ص650.

[60] ابن الزيات: م س, ص181.

[61] المصدر نفسه, ص170.

[62] المصدر نفسه, ص207.

[63] المصدر نفسه, ص93.

[64] المصدر نفسه, ص100.

[65] المصدر نفسه, ص106.

[66] المصدر نفسه, ص298.

[67] ابن القاضي: م س, ص501.

[68] ابن الزيات, م س, ص254.

[69] الصومعي: م س, ورقة 4ب.

[70] المصدر نفسه, ورقة 4 ب.

[71] الصومعي: م س, ورقة 194 ا.

[72] ابن مريم, أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد: البستان في ذكر أولياء والعلماء بتلمسان, مراجعة محمد بن أبي شنب, الجزائر, 1908م, ص303.

[73] التميمي: م س, ص142.

[74] ابن القاضي: م س, ص105.

[75] ابن الزيات: م س, ص454.

[76] ابن الخطيب, الوزير محمد لسان العرب,: أعمال الأعلام فمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام, القسم الثاني, تحقيق ليفي بروفنسال, رباط الفتح, 1934م, ص250.

[77] ابن صعد, م س, ص162.

[78] ابن الزيات: م س, ص51.

[79] الصومعي: م س, ورقة 143.

[80] الكتاني, محمد المنتصر: الغزالي والمغرب, بحث ضمن مقالات وأبحاث ألقيت في مهرجان دمشق, سنة 1961م, ص83.

[81] العزفي, أبو عبدالله أحمد بن محمد بن أحمد اللخمي السبتي (ت 623هـ), دعامة اليقين في زعامة المتقين, (مخطوطة), الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط, ص90.

[82] انظر, انس الفقير وعز الحقير, م س, ص403.

[83] أبو مدين, الشيخ شعيب الأنصاري الأندلسي نزيل فاس (ت 592هـ): أنس الوحيد ونزهة المريد, الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط, ص110.

[84] ابن رشد, أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي الفقيه (توفي بقرطبة في 11 ذي القعدة عام 520هـ): نوازل ابن رشد, الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط, ص368.

[85] ابن خلدون, عبدالرحمن بن محمد(808هـ): مقدمة ابن خلدون, مطبعة الكشاف, بيروت, ص1087.

[86] الكعاك, عثمان: محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب, معهد الدراسات العربية, 1958م, ص6.

[87] الكتاني: م س, ص26.

[88] ابن القاضي: م س, ص183.

[89] انظر ابن القاضي: م س, ص183

[90] الصومعي, م س, ص34.

[91] ابن القاضي: م س, ص223. ابن الزيات م س, ص183.

[92] سورة الصافات, آية 144.

[93] انظر ابن الزيات: م س, ص43.

[94] الكتاني: م س, ص197.

[95] الصومعي, م س, ورقة 113 ب.

[96] ابن الزيات: م س, ص252.

[97] المصدر نفسه, ص172.

[98] المصدر نفسه, ص217.

[99] العزفي: م س, ص114.

[100] ابن الزيات: م س, ص242.

[101] المصدر نفسه, ص111.

[102] المصدر نفسه, ص297.

[103] المصدر نفسه, ص297.

[104] ابن صعد: م س, ص181.

[105] ابن الزيات: م س, ص170.

[106] المعزي: م س, ص102.

[107] انظر الصومعي, م س, ص131.

[108] ابن الزيات: م س, ص213.

[109] المصدر نفسه, ص238.

[110] ابن القاضي: م س, ص560.

[111] ابن الزيات: م س, ص151.

[112] هويدي, يحيى: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية, ج1, الشمال الإفريقي, النهضة المصرية, 1975م, ص142.

[113] ابن الزيات: م س, ص104.

[114] ابن القنفد: م س, ص22.

[115] ابن القاضي: م س, ج1, ص18.

[116] انظر ابن المؤقت, محمد بن محمد بن عبدالله: السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية, جزأن طبع حجر, مراكش, 1335هـ, ص155.

[117] المصدر نفسه, ص156.

[118] المصدر نفسه, ص157.

[119] ابن القنفد: م س, ص31.

[120] ابن الزيات: م س, ص217.

[121] المصدر نفسه, ص283.

[122] المصدر نفسه, ص290.

[123] العزفي: م س, ص115.

[124] التميمي: م س, ص142.